علوم البـــــلاغة
بين القدامى والمحدثين

للأستاذ كامل السيد شاهين

مدرسة الرسالة ، لها طابعها الخاص ، فى المساجلة والنقاش على هذا أسست ، وامتحنتها الأيام بضروب من المحن ، فثبتت على الزعازع ، وانتصرت على الأغراض والأهواء . يعلم ذلك من تابع « الرسالة » منذ مولدها الميمون إلى حاضرها الزاهر .

فالرسالة للجميع بلا تفضيل ولا إيثار . لأن البحث والدرس يلدان الحقيقة التى كانت نشدة أصحاب العقول منذ خلقت الفلسفة وبهما تقررت الحقائق وثبتت، ولم يسفها التضليل مع السافيات .

إذا تقرر هذا ، فليسمح لى الزميلان : الطنطاوى والعمارى ، أن ألفت نظرهما فى رفق إلى مزالق ما كنت أحب لها أن يتورطا فيها ، أو ينحدرا إليها فقد راع الأول أن يقول أستاذ البلاغة فى الجامعة « الله يقول لنبيه : يا أخى أنت حارق نفسك ليه ؟ » . وراح يزعم أن هـذا إشراك وكفر ، ويستعدى على الجامعة والجامعيين ، ويثير الناس ليدّاركوا أبناءهم أن يجرفهم تيار الشرك والإلحاد !

بالله هوّن عليك يا على ! ، فليس ثمت شرك ولا كفر ، وأنت أخبرُ الناس بذلك ، وأدراهم أن هذه الكلمة قد فقدت حقيقتها فى أفواه الناس ، ألم تسمع إلى الفلاح يهز حماره ، ويقول يا أخى سِرْ ! أفتراه قصد أخوة النسب أو الرضاع ، أو الآدمية ، أو الحمارية . لا : إنما هى كلمة تحنين وتعطف ! وشبيه بهذا قول السائق لحصانه : ياشيخ ! والنظائر فى هذا أكثر من أن تحصى .

فلا تُرَعْ ، ولا تستنفر وأبق على الجامعة والجامعيين ، ودَعْ حديث الكفر والإلحاد فقد جنت مصر ثمراً مراً فى دهر طويل ، كانت حَرِيّة أن تصرفه فيما يفيد ويغنى !

ثم اللغة العربية ، ليست لغة الإيمان والإسلام ، فقد سبقت الإيمان والتوحيد بقرون طويلة ، فإن أبيْتَ إلا أن تخرُج لغة مؤمنة مسلمة موحدة ، فدونك فاصنع دراستها فى كلية اللغة ودار العلوم بمصر ، ودار العلوم ببغداد ، وأنشىء لك اللغة المباركة التى ولدت مسلمة وشبت مسلمة ، ثم أدعنا ، وإنا — إن شاء الله — لمستجيبون ! وأظن هذه لمحة دالّة فى علاقة اللغة بالإيمان والإسلام . فإن غُمِّت فسنفرد لها مقالا خاصاً يضم الشتيت ويجمع المتفرق .

وأما أنت يا عمارى ، فكنت بمنجاة من اللوم ، إذ عرضت للاسلوب الذى تدرس به البلاغة فى الجامعة فلكل امرىء فيما يحاول مذهب ، وما كنت أحسب أنه سيغريك نقد الأسلوب بنقد الآراء ، فأما إذا انحدرت إلى هذا فهلُمّ ! :

(١) تقول : « إن الفكرة المتسلطة عليه فى هذا الفن أن يجعل لكل عبارة من عباراته منبعاً لمعان نفسية » .

إى نعم ، يا على ، أأنت قرأت تعريف البلاغة ؟ إن الذى لا يختلف فيه اثنان هو أن البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال ولا أزيد بياناً ولا بسطاً ، ولكن هـذه المطابقة لا تكون إلا بإدراك المتكلم لنفسية السامع وما تحوى من ملابسات ، فهذا هو فحوى كلام الأستاذ الخولى ، أفتمارى فى هذا ؟ إذن فهات تعريفك أنت لعلم البلاغة فانا منتظرون ! .

(٢) تقول : « أن الأستاذ لا يؤمن بالماديات الصرفة ، ولا يستحسن تشبيه الفرس بالثلج فى البياض » ؛ فهو ذاك يا صاح ! فإنه لا يجْمُلُ إلا حيث يكون للبياض مزية كالمساعدة على الاختفاء ، وعدم ظهوره فى آل الصحراء ، فأما إذا لم تعتبر هذه المزية فلا فضل لأبيض على أبلق أو كيت ! وذلك هو ماقصد إليه الأستاذ من تنبيهه على تفاهة التفضيل المقتضى للتشبيه فى بيت ابن الزّبير الأسدى .

(٣) عاب أستاذ الجامعة البيتين :

ولا زوردية تزهو بزرقتها ... بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها بين قامات ضعفن بها ... أوائل النار فى أطراف كبريت

وخلاصة العيب أن الشاعر شبه صورة بصورة فى الوضع واللون ، ولم يلتفت إلى ما وراء ذلك من إيحاءات وأفاعيل ، ينتظرها السامع من شاعر !

وقد خالف عليه الأستاذ العمارى بأن الفن يوجد فى المعانى كما يوجد فى الماديات ..

وليس هذا بالكلام يُصغى إليه ، فالماديات بحتة لا تأثير لها وإنما التأثير لما يتعلق بها من معانٍ ، فإن قلت : إن تمثال الزهرة كالزهرة كنت مشبهاً تشبيهاً مصيباً مؤثراً ، لا إنه لاعتبار إلا لما يوحيه ويستلزمه هذا التشبيه من دقة الصناعة والمهارة فى المشاكهة بين زهرة الورق أو الصلصال وأختها الطبيعية الحية .

يا سيدى : إن مثل التشبيه فى البيتين فى خلوه من الروح كمثل من يرى بقعاً من دم قتيل أو طائر منثورة على الرمال ، ثم يسير فيجد خرزات حمراً مستديرة فيفجأ السامع : أتدرى ؟! إن بقع الدم التى رأينا كهذه الخرزات احمرارها . احمرارها ، واستدارتها استدارتها ، وحجمها حجمها ، وانتثارها على غير نظام انتثارها ! أفيعجبك هذا ويكون تشبيهاً غريباً عجيباً مصيباً مستحقاً للاطراء والثناء ؟ !

أحسب أن لا ! .

ذلك أن السامع حين يُذكر الدم تعتريه الرهبة والإشفاق والرثاء لصاحب الدم المطلول ، وحب التشفى ممن سفكه ، ولا يخطر له ببال أنه مستدير أحمر منثور على غير نظام .

فمثل هذا التشبيه عبث ولغو وشعبذة ، وسقوط بالقيم الفنية للشعر إلى حد سخيف ! .

وهمسة أهمسها ، لا بل مجلجلة أعلنها لا بتردداً ولا هائباً ، تلك : أن الثقة بأذواق النقاد القدامى يجب ألا تطرد ، وأن استشهادهم يجب أن يكون موضع نظر جديد ، وأن الاستشهاد بآرائهم يجب أن يعرض على محك التمحيص . ذلك بأنهم — على جلالتهم — قد شملهم ذوق العصر ولم تستقم فى أذواقهم اللغة غضة طرية ، عطلا من زينة وحلية ، وأثر البيئة أثر جليل فى الأذواق والعقول ، ومن ثم كانت تفاهة الاستشهادات ، والتخريجات ، وكان لجوؤهم إلى الفلسفة والناحية العقلية هرباً من الناحية الذوقية ، فقاسوا بالشبر والقيراط ، واتخذوا المبالغة أساساً للتفضيل ، ولم تظهر لهم الزينة فى القوة والعذوبة والسلاسة والنغم فطلبوها بالصبغ والألوان والشعبذة اللفظية . إذا ثبت هذا فأعفنى — عافاك الله — من استحسان البلاغيين ، وعدم استحسانهم ، فنحن نسأل الذواقين من أمراء البيان . فطه حسين والزيات ، والعقاد ، وأحمد أمين ، وخليل مطران ، أولئك المحكّمون ترضى حكومتهم . فأما السعد والخطيب فلا نبيهما ولكن نقول غلبت عليهما شقوة العصر وفساد الذوق ، وقوة الفلسفة ! .

فكلام عبد القاهر فى أن التباعد كلما زاد كان موجباً لارتياح النفس ليس مطرداً ، وليس أدل على هذا مما سقته لك مثلا من تشبيه الدم بالخرز الأحمر .

(٤) وأما حسد جرير لعدى بن الرقاع العاملى عندما أنشد :

ترجى أغن كأن إبرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها

فناحيته أنه أعرابى لا يعرف التحبير ، ولم يخبر من المدنية ما يطوع له أن يعرف قراطيسها ، ومحابرها وأقلامها ، فظن جرير أنه لن يهتدى إلى شىء يشبه به رُوق الأغن ، فلما أصابه حسده جرير . ألا تراه يقول : « قلت : قد وقع ! ماعساه يقول؟ وهو أعرابى جلف جاف ! » .

فأنت قد وقفت — يا علىّ — فى سرّ حسد جرير ، ولم تدره فظننت أنه إنما حسده لأنه كان تشبيهاً بارعاً مصيباً له تأثيره وجماله ، وما هو بذاك .

(القاهرة) كامل السيد شاهين
مدرس بالمدارس الأميرية

كتاب الخصائص

قررت دار الكتب المصرية بيع الجزء الأول من كتاب الخصائص لابن جنى ، وهو معروض للبيع يومياً وثمن النسخة الواحدة مائة مليم للأفراد وثمانون مليما لباعة الكتب .

الجامع لأحكام القرآن

وقد أتمت طبع الجزء الخامس عشر من كتاب الجامع لأحكام القرآن الكريم لابن عبد الله أحمد الأنصارى للقرطبي وهو معروض للبيع يومياً وثمن النسخة الواحدة منه ٤٥٠ مليما للافراد ، ٤٠٠ مليم لباعة الكتب .